الفصل الأول

اليهود فى عقل أوربا فى العصور الوسطى وجذور المسألة اليهودية

العصور الوسطى فى الغرب فترة تمتد من القرن الخامس الميلادى حتى القرن الخامس عشر، وقد وصلت العصور الوسطى ذروتها فى الفترة من القرن الحادى عشر حتى القرن الرابع عشر الميلادى.

وتبدأ العصور الوسطى بانهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية وانهيار أطرها الاقتصادية والقانونية والثقافية أيضًا. وكانت الإمبراطورية الرومانية تعامل اليهود باعتبارهم «كوليجيوم Colllegium» أى «رابطة»، وهى جماعة من حق أعضائها أن يجتمعوا للقيام بشعائرهم الدينية وأن يمارسوا شريعة أسلافهم، وفى عام ٢١٢ م أصدر الإمبراطور كاراكالا مرسومًا بمنح كل الأحرار فى الإمبراطورية الرومانية حق المواطنة الرومانية، الأمر الذى كان يعنى أن أغلبية أعضاء الجماعة اليهودية أصبحوا مواطنين، إلا أن هذا جرى نسيانه تمامًا، وصُنِّف اليهود حسب القانون أو العرف الألمانى باعتبارهم «غرباء» وقد تساقط النظام الضريبى الذى فرضته الدولة الرومانية و لم تَعُد هناك عملة

أوربية يمكن لكل دول أوربا التعامل بـــها فيما بينها، وأهملت الطـــرق وأصبحت غير آمنة.

وشهدت العصور الوسطى فى الغرب محاولة للنهوض من هذا التردى وخلق مؤسسات قانونية واقتصادية تحل محل المؤسسات التى تساقطت . وبطبيعة الحال ، تأثرت الجماعة اليهودية بكل ذلك .

من بداية العصور الوسطى حتى القرن الحادى عشر الميلادى :

يعتبر القرن الخامس الميلادى، وخصوصا عام ٤٧٦ م ، التاريخ الذى بدأت فيه العصور الوسطى بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربيـــة تحت هجمات القبائل البربرية. وما يهمنا فيما يتعلق بالجماعات اليهودية أن الإمبراطورية الرومانية كانت قد تبنـــت المســـيحية عـــام ٣٤٠ م باعتبارها ديناً رسمياً للدولة تكتســب منه شرعيتها.

وفى ذلك الوقت تقريبا ، أصبحـــت الزرادشـــتية عقيـــدة الدولـــة الإمبراطورية الفارسية ، وظل الأمر على ذلك حـــتى القـــرن الســـابع الميلادى حيث حلّ الإسلام محلها وأصبح العقيدة الأساسية فى الشـــرق العربى وفى كثير من بلاد آسيا وأفريقيا . وتتميَّز هذه المرحلة بأن أعضاء الجماعة اليهودية وجدوا أنفسهم أقلية فى دولة لهـــا إطـــار عقـــائدى متماسك سواء فى الشرق حيث الزرادشتية ثم الإســـلام أو فى الغـــرب حيث المسيحية ، كما وجدوا أن الدين السائد دين توحيـــدى وليـــس عبادة وثنية . وكان هذا أمراً جديداً كل الجدة على اليهودية التى كانت موجودة دائماً فى محيط وثنى تحارب ضده وتكتسب هويتها الدينية مـــن

صراعها معه. وقد ازدادت العلاقات سوءاً وتوتراً بين أعضاء الجماعات اليهودية والعالم المسيحى ، وخصوصا بعد أن أعلن السنهدرين أن المسيح ليس الماشيَّح اليهودى الحقيقى وإنما الذى سيأتى فى آخر الأيام هو المسيح الدجال فى حين آمن المسيحيون بأن هدم الهيكل إنما هو تحقيق لنبوءة المسيح . وقد حققت المسيحية انتصارات هائلة ، وخصوصاً بعد أن تبنتها الإمبراطورية الرومانية ، فتوقف النشاط اليهودى التبشيرى وانطوى اليهود على أنفسهم وانصرف علماؤهم لتدوين وجمع التلمود بما يحويه من كره عميق للمسيحية ولشخص المسيح، وبما يتضمنه من سب للمسيح .

وحدد وضع الجماعات اليهودية فى المجتمع الغربى الوسيط عنصران ، **أحدهما دنيوى والآخر** دينى ، فقد أصدر قسطنطين (٣١٢م - ٣٣٧م) تشريعات لتنظيم العلاقة مع اليهود ، و لم تَعُد اليهودية بمقتضى هذه التشريعات «كوليجيوم» أو دينًا مشروعًا أو مباحًا (باللاتينية: ريليجيوليكيتا religiolicito) كما كانت أيام الرومان وإنما أصبحت «المذهب الشائن أو الشنيع». وأصبح محظوراً على اليهود الزواج من المسيحيين ، كما مُنع أى يهودى من التنصر والتبشير بالدين اليهودى . وحظرت تشريعات لاحقة على اليهود امتلاك عبيد مسيحيين أو حتى أى عبيد على الإطلاق وهو ما كان يعنى استبعادهم من الزراعة ، كما استُبعد اليهود من الخدمة العسكرية ومن الاشتغال بالطب . وفى عام ٤٣٨ م ، منع ثيودوس الثانى اليهود من شغل وظائف عامة . ورغم أن هذه التشريعات لم تؤخذ مأخذ الجد فإنها شكلت مع هذا الإطار القانونى الذى تحكَّم فى علاقة اليهود بالمجتمعات المسيحية الوسيطة.

وينبع موقف الكنيسة من أعضاء الجماعات اليهودية من فكرتين أساسيتين مختلفتين عن اليهود :

١- اليهود قتلة المسيح الذين أنكروه ، ولذا لابد من عقابهم على ذلك .

٢- اليهود هم أيضاً الشعب الشاهد الذى عاصر أعضاؤه ظهور المسيح وبداية الكنيسة ، وهم بتمسكهم بشعائر دينهم التى ترمز إلى الشعائر المسيحية منذ القدم وبتدنى وضعهم يقفون شاهدا حيا على صدق الكتاب المقدَّس وعلى عظمة الكنيسة . وقد تَمثَّل هذه الموقف المزدوج فى سياسة الكنيسة التى وضعها البابا جريجورى الأول (الأعظم) (٥٩٠ م - ٦٠٤ م) وآخرون من بعده ، والتى ترى ضرورة الإبقاء على اليهودية وعلى الشعب اليهودى باعتباره شعباً شاهداً سيؤمن فى نهاية الأمر بالمسيحية ، ولذا ينبغى فى الوقت نفسه وضعهم فى مكانة أدنى.

وقد أصدر جريجورى الأول مرسوماً بابوياً يتضمن هذه العبارة : « **كما أن اليهود لا يحق لهم أن يفعلوا ما لا يُسمَح لهم به حسب القانون ، فإنه يتعيَّن ألا يُحرموا من المزايا التى منحت لهم** » . ومن ثم مُنع قتل اليهود أو الهجوم عليهم أو حرق معابدهم أو مضايقتهم أثناء تعبُّدهم أو استخدام القوة فى تنصيرهم . وأصبح هذا المرسوم أساساً لكل المراسيم البابوية اللاحقة حتى القرن الخامس عشر الميلادى .

ولهذا ، حاربت الكنيسة الطرق غير الشرعية لتنصير اليهود قسراً ، معتبرة أن ثمرة هذه العملية لا تشكل أى نصر حقيقى للكنيسة ولا تزيد عظمتها . ولكنها شجعت فى الوقت نفسه إلقاء المواعظ عليهم والإقناع بالأشكال المشروعة الأخرى «**وهذا الموقف المزدوج هو ما تحوّل على يد المفكرين البروتستانت إلى العقيدة الاسترجاعية أو الألفية فى القرن السابع عشر الميلادى ، ثم تمت علمنته تماماً فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى ليصبح فكرة الشعب العضوى المنبوذ التى تعنى أن اليهود كتلة بشرية متماسكة متميزة منعزلة عن المجتمع ومنبوذة منه**».

ويُلاحظ أن العصور الوسطى فى الغرب شهدت غياب التجانس بين أعضاء الجماعات اليهودية أكثر فأكثر ، وهى العملية التى كانت قد بدأت بعد أن أسَّس الإسكندر إمبراطوريته . فبدأ اليهود يتحركون داخل فلك حضارتين أساسيتين هما : الفارسية واليونانية (ثم الرومانية). وانتشر أعضاء الجماعات اليهودية على ساحل البحر الأبيض المتوسط فى اليونان وإيطاليا وإسبانيا وشمال أفريقيا والإسكندرية وفلسطين وآسيا الصغرى . وكان معظم أعضاء الجماعات اليهودية ، مع بداية العصور الوسطى فى الغرب ، يتركزون فى الإمبراطورية البيزنطية . ولكن مركز اليهودية فى العالم الغربى انتقل من بيزنطة إلى داخل أوربا ابتداء من القرن التاسع الميلادى : جنوب فرنسا (الغال) ثم شمالها ، وإنجلترا ثم ألمانيا . ومما زاد من عدم التجانس ، عدم وجود سلطة مركزية موحدَّة فى الإقطاع الأوربى . فبعد موت شارلمان (٨١٤ م) بفترة

قصيرة، تفسخت الإمبراطورية التى بناها وتفتتت سياسياً إثر هجمات الفايكنج من الشمال ، وقبائل الدانوب شبه البدوية من الشرق ، ومسلمى شمال أفريقيا من الجنوب . وقد استمرت الهجمات مدة قرنين، فأصبح الإقطاع واللامركزية هما الصفة الأساسية فى المجتمعات الغربية ، وهو ما أضعف الملكية وزاد نفوذ الأمراء الإقطاعيين . وأصبحت الجماعات اليهودية فى العصور الوسطى نفسها تتسم بتنوع لغاتها وطقوسها الدينية.

وأهم هذه الجماعات الجماعة اليهودية فى إسبانيا (**السفارد**) وفى جنوب فرنسا (**يهود البروفنسال**) ، وفى إيطاليا (**الإيطاليانى**) ، وفى الإمبراطورية البيزنطية أى إمبراطورية الروم (**الرومانيون**) . والجماعات اليهودية فى ألمانيا ثم بولندا فيما بعد (**الإشكناز**) . وكان أعضاء كل جماعة لا يختلطون بالضرورة بأعضاء الجماعات الأخرى (هذا على عكس وضع اليهود فى العالم الإسلامى حيث كانوا أساساً من اليهود المستعربة الذين كانوا يتحدثون العربية . ومع هذا ، كانت هناك جماعة يهودية صغيرة فى إيران اكتسبت كثيراً من خصائص المجتمع الذى كانت تعيش فيه . كما كان هناك **يهود الخزر** الأتراك فى القوقاز (**ويهود كايفنج فى الصين**) . وقد ازداد تَفَتُّت الجماعات اليهودية فى الغرب بظهور الملكيات القوية فيما بعد، والتى كانت حريصة على الدفاع عن استقلالها القومى ، ومن هنا يكون من المستحيل الحديث عن اليهود بشكل عام بعد سقوط الدولة الرومانية ، ومن الأفضل الحديث عن الجماعات اليهودية.

ولم يكن المجتمع الغربي الوسيط مقسَّما إلى دول وإمارات مستقلة تفتقد إلى سلطة مركزية قوية وحسب ، وإنما كانت كل دولة وكل إمارة مكوَّنة من جماعات متماسكة منفصلة لكل منها قوانينها ؛ فكان النبلاء والأقنان الذين يعيشون في صميم النظام الإقطاعي يشتغلون بالقتال والزراعة ، وكان التجار وأعضاء النقابات الحرفية أعضاء في البلديات ، وكان القساوسة وممثلو البيروقراطية الدينية تابعين للكنيسة ، وقد تمتعت كل جماعة بدرجة من الاستقلال عن الجماعات الأخرى. أما أعضاء الجماعات اليهودية ، فلم يكونوا مواطنين في المدينة ولا فلاحين في الضياع الإقطاعية، ولم يكونوا من الفرسان المحاربين ، كما أنهم لم يكونوا بطبيعة الحال منتمين إلى الكنيسة الكاثوليكية . وعلى كلٍّ ، كان الانتماء للمجتمع الإقطاعي المسيحي يتطلب يمين الولاء المسيحي ، الأمر الذي لم يكن متاحاً لليهود إلا إذا تنصروا . وقد حُلَّت هذه المشكلة القانونية بالعودة إلى القانون أو العرف الألماني ، وتم تصنيف اليهود « غرباء » .

والغريب في العرف الألماني كان يُعد تابعاً للملك تبعية مباشرة ، ومن ثم أصبح أعضاء الجماعة مسئولين مسئولية مباشرة أمام الملك أو الإمبراطور ، يتبعونه ويوضعون تحت حمايته ، بل كانوا يُعَدُّون ملكية خاصة له بالمعنى الحرفي (أقنان بلاط) ، الأمر الذي حولهم إلى ما يشبه أدوات الإنتاج . وكان الملك يفرض عليهم ضرائب كانت تصب في خزانته كما أنه كان يبيعهم المواثيق والمزايا ويحقق من ذلك أرباحاً .

ومع أن مفهوم أقنان البلاط كان كاملاً فى كثير من المواثيق والمراسيم منذ أيام شارلمان (٧٤٢ م - ٨١٤ م) ، فإنه استُخدم لأول مرة فى مرسوم الملك فريدريك الأول عام ١١٥٧ م ، ثم أكده فريدريك الثانى عام ١٢٣٦ م حين أصدر مرسوماً يشير إلى كل يهود ألمانيا باعتبارهم أقنان بلاط .

وبوضعهم تحت حماية الإمبراطور مباشرة ، أصبح اليهود جماعة وظيفية مالية تابعة للطبقة الحاكمة أساساً ، يتمتع أعضاؤها بحقوق تفوق فى كثير من الأحيان حقوق عامة الشعب ولا تختلف أحياناً عن حقوق النبلاء ورجال الدين . فقد سُمح لهم ، حتى القرن الثالث عشر الميلادى ، بحمل السلاح فى كثير من البلاد الأوربية ، وبامتلاك الأراضى الزراعية والعبيد غير المسيحيين ، كما أعفوا من عقوبة الضرب ومن التعذيب أثناء المحاكمة ، وأعفوا أيضاً من غير ذلك من الممارسات التى كان الأقنان يخضعون لها . بل إن الزى الخاص الذى كان يرتديه أعضاء الجماعات اليهودية ، والشارة التى كان عليهم تثبيتها على ملابسهم ، كانا يُعَدّان مزايا يطالبون بها ويصرون عليها . والقبعة اليهودية حق آخر حصلوا عليه بمبادرة منهم. أما حق بناء سور حول منطقة سكنهم ، فهى ميزة سعوا إليها سعياً حثيثاً وحصلوا عليها كتابة فى المواثيق التى كانت تُمنَح لهم ، وهى المناطق التى سُمِّيت فيما بعد « الجيتو » . وقد حقق أعضاء الجماعات اليهودية مستوى معيشياً مرتفعاً . ولذا ، حينما حدث ما يشبه المجاعة فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين ، لا نجد لها أى صدى فى المصادر اليهودية ، وهو أمر متوقع بالنسبة لجماعة تتمتع بشىء من الثراء .

ومع هذا ، كان عضو الجماعة اليهودية الوظيفية لا حول له ولا قوة إذ أنه ، رغم تبعيته للملك والنخبة الحاكمة ، كان يعيش بين قوى شعبية لا تضمر له حبا ولا تشعر نحوه بأى عطف ، ويحيا فى عزلة وغربة عنها ، الأمر الذى زاد التصاقه بالملك وبالنخبة وزاد اعتماده عليهم ، وبذلك أصبحت الجماعة اليهودية فى المجتمع الوسيط جماعة وظيفية وسيطة تضطلع بوظائف تتطلب الموضوعية والحياد ، وأصبح وجودهم مرتبطا بمدى نفعهم كأداة (على عكس وضع اليهود فى المجتمعات الإسلامية حيث تحددت مكانة اليهود ، شأنهم شأن أعضاء الجماعات والطوائف الأخرى ، باعتبارهم من أهل الذمة ، وهو مفهوم لا علاقة له بمسألة مدى نفع الإنسان) .

ولعل المزية الكبرى التى حصل عليها أعضاء الجماعات اليهودية هى حرية الحركة ، إذ أصبحوا العنصر البشرى الوحيد المتحرك فى المجتمع . ذلك أن الأقنان والفلاحين كانوا مرتبطين بالأرض رغم أنفهم ، وكان النبلاء لا كيان لهم خارج إقطاعيتهم ، ورجال الكنيسة يرتبط كل واحد منهم بكنيسته أو ديره ، وكان التجار المسيحيون تقف فى طريقهم حواجز كثيرة تعوق حركتهم مثل ضرائب المرور التى كان اليهود معفين منها . ولكل هذا ، تحول أعضاء الجماعات اليهودية إلى عنصر متحرك استيطان تجارى وترسخ المفهوم تماما فى الوجدان الغربى . وعلى سبيل المثال ، قام شارلمان بتوطين بعض اليهود فى ماركا هسبانيكا (فى جنوب فرنسا) ليكونوا بمنزلة حاجز على حدود العالم المسيحى لوقف التوسع الإسلامى . وإذا كان أعضاء الجماعات اليهودية قد

عملوا بالزراعة فى هذه التجربة، فإنهم عادةً مـــا كـــانوا يدعـــون إلى الاستيطان للاضطلاع بوظيفة التجارة باعتبارهم عنصراً بشرياً قـــادراً على تنشيط التجارة بسبب خبراته ورأسماله وشبكة اتصالاته التجاريـــة الواسعة وحركيته . وفى القرن الثامن الميلادى علـــى ســـبيل المثـــال ، استوطن فى فرنسا عدد من التجار اليهود بدعوة من شارلمان ، بهـــدف تنشيط التجارة ، فوضعهم تحت حمايته ، ويُلاحَـــظ ارتبـــاط اليـــهود بشارلمان ، فهو أول من حاول أن يخلق إطارا اقتصاديا جديداً يحل محـــل الإطار الرومانى ، كما كان أول من سك عملة فضية للتداول فى أوربا ، وبذلك جعل شارلمان التبادل النقدى ممكنا بدلا من المقايضة . وقد اتبع خلفاؤه السياسة نفسها فى العصر الكارولنجى ، فاشتغل اليهود بالتجارة والاستيراد والتصدير فى وادى الرون ومقاطعة شامبين . ومن المعـــروف أن جنوب فرنسا كان المركز الأساسى للتجار اليهود الدوليين الذيـــن أطلق عليهم اسم الراذانية (نسبة إلى نهر الرون كما يُقال) . وكـــان شمال فرنسا ، فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين ، يضم أهم تجمُّع يهودى فى فرنسا ، كما كان مركزاً للدراسات التلمودية حيـــث كان راشى يقيم ويعمل بتجارة الخمور ويكتب تعليقاته عن التلمود .

ويُلاحظ أن النمط نفسه تكرَّر حين تم تشجيع استيطان اليـــهود فى ألمانيا خلال القرنين الثامن والتاسع الميلاديين بهدف تشجيع التجـــارة. وبدأت تظهر جماعات يهودية فى المراكز التجارية الأساسية مثل : مينـــز وأوجسبرج فى القرن التاسع الميلادى ، وورمـــز ومينـــز فى القـــرن العاشر ، وهى التى ازدهرت فيها مراكز الدراسات التلمودية . وكـــان

أكثر مناطق الكثافة السكانية اليهودية هو وادى الراين (مينز وسبير وورمز وكولونيا) حيث ظهرت هناك أيضاً حياة فكرية فى القرن الحادى عشر الميلادى تحت تأثير يهود فرنسا . أما فى إنجلترا ، فمن المعروف أن بعض الممولين اليهود تمركزوا بعد الغزو النورماندى حيث أسسوا جماعات يهودية (فى لندن ويورك وبرستول وكانتربرى) كانت تشتغل أساساً بالتجارة والإقراض ووُضعت تحت حماية التاج الإنجليزى . ولم يختلف الوضع كثيراً فى إسبانيا المسيحية ، فقد استخدم الأمراء المسيحيون فى بادئ الأمر أعضاء الجماعات اليهودية بعد خروج المسلمين ، وظهرت فئة يهود البلاط هناك حيث استفاد الأمراء الأسبان من خبرات أعضاء الجماعات اليهودية فى أعمال التجارة والمال والإدارة .

فى القرن الثانى الميلادى : استوطن اليهود فى روما وتركزوا فى الموانئ الجنوبية ثم على طرق التجارة . وتدهورت أحوالهم قليلا مع تحول الإمبراطورية الرومانية إلى المسيحية ، ولكنهم وُضعوا تحت حماية البابا مع بداية العصر الوسيط . وظل أعضاء الجماعات اليهودية فى جنوب إيطاليا يشتغلون بتجارة الجملة حتى حل تجار البندقية محلهم . وارتبط اليهود بالتجارة حيث سيطروا على التجارة الدولية والتجارة المحلية إلى أن ظهرت المدن الدول البحرية الإيطالية. ولهذا ، فبعد أن كانت كلمة « يهودى » تشير فى الدولة الرومانية إلى « عضو فى قوم (إثنوس) » ، أصبحت هذه الكلمة تدل على « التاجر » .

ولعل كل هذه السمات مجتمعة (ارتباط أعضاء الجماعات اليهودية بالنخبة الحاكمة ، وحصولهم على حقوق ومزايا خاصة ، واشتغالهم بالتجارة والربا) قد حددت علاقة أعضاء الجماعات اليهودية بالطبقات المختلفة فى المجتمع ، فعلاقتهم بالطبقات الثرية (الأمراء الإقطاعيين) لم تكن بكل وضوح علاقة صراع ، ذلك لأنهم كانوا يحتاجون إلى اليهود رغم كرههم لهم وحقدهم عليهم نظراً لقربهم من الملك . أما الكنيسة ، فقد ذكرنا موقفها المزدوج من اليهود . ويبقى بعد ذلك سكان المدن والفلاحون ، أى ما يمكن أن نطلق عليه الشعب أو الجماهير . وقد كان هؤلاء ينظرون إلى اليهودى باعتباره العدو المستغل، فكان سكان المدن الذين يعملون بالتجارة ، يجدون أن اليهود فئة تعمل فى المجال نفسه ولكنها ليست خاضعة لسيطرتهم أو تنظيماتهم بل خاضعة للملك مباشرة ، الأمر الذى أعطى اليهود حرية فى الحركة لم يكن التجار المسيحيون أنفسهم يتمتعون بها . كما أن التجار المسيحيين كانوا خاضعين للأخلاقيات المسيحية وما تفرضه عليهم من حدود وقيود . على عكس التاجر اليهودى ، الذى كان على استعداد دائم لأن يتجاهل هذه الأخلاقيات متى سنحت له الفرصة .

أما الفلاحون والحرفيون ، فكانوا يقعون ضحايا الربا اليهودى والنشاطات التجارية الأخرى التى اختص بها أعضاء الجماعات اليهودية . وكانت هذه الفئة من سكان المدن أعدى أعداء اليهود على عكس كبار المموّلين والتجار فى المدينة حيث لم يكن هؤلاء يخشون سطوة اليهود نظراً لضخامة حجمهم ونفوذهم . وكثيراً ما كانت تقع

اضطرابات ضد الجماعات اليهودية فى المدن ويقودها صغار الموظفين والحرفيين . وقد كانت هذه الاضطرابات ذات طابع شعبى وكانت تنتشر بين جماهير لا تفهم طبيعة النظام ولا الطبيعة الملتوية وغير المباشرة لعملية الاستغلال ، ولذلك ، كان الرمز المباشر والواضح للاستغلال وأداته الملموسة هو اليهودى الذى كان أداة الطبقة الحاكمة فى امتصاص غضب الجماهير. وكانت النخبة الحاكمة (الإمبراطور والكنيسة) تبذل قصارى جهدها لحماية اليهود ، وهو ما كان يدعم شكوك الجماهير .

ويمكننا أن نُشبه أعضاء الجماعات اليهودية فى العصور الوسطى (فى الغرب) بالمماليك ، وهم جماعة وظيفية أخرى كانت تعمل بالقتال. فأعضاء الجماعة اليهودية كانوا ملكية خاصة للإمبراطور ، وهم مثل المماليك يختلفون إثنياً ووظيفياً (ويختلفون كذلك دينيًا فى حالة اليهود) عن بقية أفراد الشعب . وقد كانت وظيفتهم ، كمحاربين أو تجار ، تتطلب أن يظلوا غرباء عن المجتمع. فالتجارة كانت نشاطاً كريها ولم تكن قط نشاطاً أساسياً فى العصور الوسطى ، أما القتال فقد كان وظيفة غير محببة ويتطلب تَملُّك ناصيتها قدراً من التفرغ . ومع هذا ، لم يكن اليهود مماليك مسلحين. وقد يكن من المناسب أن نسميهم «المماليك التجارية» . وكان المماليك التجارية داخل الحضارة الغربية ، مثلهم مثل المماليك ، أداة استغلال ومحط كراهية الجماهير ، ولكنهم كانوا عُزّلاً غير مسلحين. وقد كانت خطورة وضعهم داخل الحضارة الغربية كامنة فى النظر إليهم باعتبارهم جماعة تكتسب طابعاً عاماً مجرداً ، فكان الهجوم مثلاً على اليهود يُنظر إليه وكأنه اقتحام أحد

المصارف أو تحطيم لآلات المصنع على نحو ما كان يفعل العمال فى أوربا فى القرن التاسع عشر الميلادى. ويمكن النظر إلى عملية طردهم باعتبارها كانت تساوى عملية تأميم رأس المال الأجنبى ، تماماً مثلما يحدث الآن فى بلاد العالم الثالث حينما تظهر طبقة تجارية محلية تضطلع بأعمال التجارة والمال ، أو حينما تقوم الدولة نفسها بهذه الوظائف فتؤمم البنوك وتطرد العنصر الأجنبى .

نهاية القرن الحادى عشر الميلادى حتى بداية عصر النهضة فى الغرب :

تتسم هذه الفترة من العصور الوسطى بتدهور أحوال اليهود . ويمكن اعتبار حروب الفرنجة التى تُعرّف اصطلاحاً باسم «الحروب الصليبية» نقطةً حاسمة فى تواريخ أعضاء الجماعات اليهودية ، لا لأنها قامت بالهجوم عليهم ولكن لأنها تزامنت مع تحوّل اقتصادى عميق فى المجتمعات الغربية . وقد كانت هذه الحروب تعبيراً عن التحول المتمثل فى ظهور القوى الاقتصادية المسيحية ، مثل اللومبارد فى إيطاليا والكوهارسين فى جنوب فرنسا وفرسان الهيكل فى فرنسا وغيرها من مناطق أوربا ، والمتمثل أيضاً فى ظهور جماعات رجال المال المحليين . لقد حلت هذه القوى الجديدة محل اليهود فى التجارة الدولية أو فى تجارة الجملة ، وفى مجالات ونشاطات اقتصادية أخرى مثل إقراض المبالغ الكبيرة ، الأمر الذى دفع اليهود إلى العمل فى الربا والتجارة الصغيرة البدائية . واستمر هذا التيار فى التزايُد ، وتبلور فى القرن الثالث عشر الميلادى ، واستمر حتى القرن الخامس عشر الميلادى ، حتى أصبحت

كلمة «يهودى» تعنى «مرابى» وشهد هذا القرن أيضاً ظهور الملكيات القومية التى بدأت تستقل بنفوذها عن الكنيسة وأصبحت لها مشروعاتها السياسية والاقتصادية المستقلة . وأدى هذا الوضع إلى ازدياد احتياج بعض هذه الدول إلى أعضاء الجماعة اليهودية لفترة من الزمن ثم إلى استغنائها عنهم فى مرحلة لاحقة . وساهمت حركات الهرطقة فى جنوب فرنسا ، من القرن الحادى عشر حتى القرن الرابع عشر الميلادى، فى تدهور وضع أعضاء الجماعات اليهودية حين اضطرت الكنيسة إلى اتخاذ موقف متشدد ونشطت محاكم التفتيش . ويُعَدُّ يهود إنجلترا مثلاً جيداً على صعود اليهود وتدهور حالهم ثم طردهم وتحوُّلهم من التجارة إلى الربا ومن اعتماد الطبقة الحاكمة عليهم إلى استغنائها عنهم فسهم لم يتأثروا كثيراً بحروب الفرنجة وإن شنت بعض الهجمات عليهم، ولكنهم تأثروا بظهور القوى المالية غير اليهودية ، مثل اللومبارد والكوهارسين ، الأمر الذى أدّى إلى إفقارهم . وقد أصدر إدوارد الأول عام ١٢٧٤م أمراً بمنع اليهود من الاشتغال بالأعمال المالية ، وفتح لهم أبواب الزراعة والحرف والتجارة ، ولكنه لم يُوفّق فى مساعيه فطردهم عام ١٢٩٠م . والظاهرة نفسها يمكن ملاحظتها بين يهود فرنسا الذين طردوا من التجارة ، حتى بلغ تدهورهم حداً كبيراً تحت حكم لويس التاسع (١٢٢٦م - ١٢٧٠م) ثم تم طردهم عام ١٣٠٦م .

ويتسم وضع يهود إسبانيا فى تلك المرحلة بأنه أكثر تركيباً بسبب وضع إسبانيا الخاص. فبعد فترة ازدهرت فيها التجارة اليهودية ،

أقيمت محاكم التفتيش عام ١٤٧٨م ، وانتهى الأمر بطرد اليهود من إسبانيا عام ١٤٩٢م بقرار من فرديناند وإيزابيلا ، كما تم طردهم من البرتغال عام ١٤٩٧م. وبلغ عدد اليهود الذين طُردوا نحو مائة وخمسين ألف يهودى ، لجأت أعداد كبيرة منهم إلى العالم الإسلامى فى شمال أفريقيا والدولة العثمانية ، وهاجر بعضهم إلى فرنسا وهولندا. أما يهود ألمانيا ، فكان من الصعب طردهم من بلادهم بصورة كاملة ، لأن ألمانيا كانت مقسَّمة إلى عدة إمارات صغيرة و لم تكن بها دولة مركزية قوية . وقد ضمن هذا الوضع استمرارهم إذ كانوا حينما يُطرَدون من إمارة يلجئون إلى أخرى كما كان الحال فى إيطاليا ، وعلى عكس ما حدث فى فرنسا وإنجلترا وإسبانيا حيث كانت توجد سلطة مركزية قوية نسبياً .

ومع ذلك ، يمكننا أن نقول إن معظم المدن الألمانية طردت اليهود فى نهاية الأمر . ومع القرن السادس عشر الميلادى ، لم تكن هناك جماعات يهودية إلا فى ورمز وفرانكفورت ، وكانت تُوجَد جيوب يهودية صغيرة متناثرة داخل الإمارات المختلفة . ونتيجة حروب الفرنجة، ولأسباب أخرى أيضا ، بدأ التجار اليهود بدعوة من الملوك البولنديين يستوطنون بولندا فى القرن الثالث عشر الميلادى ، وذلك لتشجيع التجارة . وقد كانت هناك عوامل تؤدى إلى تناقُص عدد أعضاء الجماعات اليهودية من بينها عمليات الطرد ، ولكن أهم هذه العوامل كان الاندماج والتنصر الطوعى ، كما يقرر إسحق أبرابانيل (الكاتب الأسبانى اليهودى فى العصر الوسيط) .

ولكن ، ورغم هذه العوامل ، فقد زاد عدد يهود أوربا الكلى بين القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين بسبب الارتفاع النسبى لمستواهم المعيشى أو بسبب هجرة يهود الخزر ، حسب نظرية آرثر كوستلر ، أو لمركب من هذه الأسباب جميعاً . ومع حلول القرن الثالث عشر الميلادى ، كانت أغلبية يهود العالم تعيش فى أوربا . وقد تعرَّض كثير من الجماعات اليهودية فى غرب أوربا للهجمات الشعبية أثناء وباء الطاعون أو الموت الأسود إذ أُلقى باللوم على اليهود ووُجِّهت إليهم تهمة نشر الوباء . وقامت الكنيسة ومعها الملوك بمحاولة حماية الجماعات اليهودية من غضب الثورات الشعبية .

وكان التركيب الاجتماعى لأعضاء الجماعات اليهودية فى أوائل العصور الوسطى الغربية هرميا . وقد شغل أعضاء سبع أسر من مينز وورمز كل المناصب المهمة فى فرنسا وألمانيا ، فكان منهم قادة الجماعة اليهودية ورؤساء المدارس التلمودية ومعلمو التوراة . وظل الانتماء الأسرى لليهودى أمرا مهما جدا فى تحديد مكانته الاجتماعية داخل الجماعة اليهودية ، تماما كما كان الأمر بالنسبة إلى المسيحى فى المجتمع الإقطاعى الغربى ، وظل هذا الوضع حتى القرن الثانى عشر الميلادى ، ولكن ، مع حلول القرن الثالث عشر الميلادى ، زاد نفوذ أثرياء اليهود ، وأصبح من الممكن إحراز المكانة من خلال الثروة خارج نطاق الوراثة . وتمتع أعضاء الجماعات فى الغرب حتى القرن التاسع عشر الميلادى ، شأنهم شأن الفئات والطوائف الأخرى ، بما نسميه «الإدارة الذاتية» ، وذلك فى الشئون الخاصة بهم كطائفة دينية ، أى

فيما يتعلق بالمحاكم والمدارس وشئون الزواج والدفن . وقد قوّى هـذا هيمنة النخبة اليهودية على أعضاء الجماعة الذين كانوا يشكلون حلقة الوصل بين أعضاء الجماعة والسلطة الحاكمة فى عملية جمع الضرائب وغيرها من الأمور .

ومع حلول القرن الثالث عشر الميلادى ، أصبح أعضاء الجماعات اليهودية فى المجتمعات الغربية الوسيطة جماعة وظيفية وسيطة تشكل جسماً غريباً بمعنى الكلمة وتعيش على هامش المجتمع أو فى مسامه ، تؤمن بدين معاد للديانة الرسمية بل تقف منها موقف النقيض ، فاليهود قتلة المسيح وفق التصور المسيحى وهم يقرءون نفس الكتاب المقدّس (العهد القديم) دون أن يعوا مضمونه ، وهم بحسب القول المسيحى : «أغبياء يحملون كتباً ذكية» ، كما أنهم يرجعون لكتاب ضخم من كتب التفسير يُسمَّى التلمود الذى هو موضع شك العالم المسيحى ، ويرتدون أزياء خاصة بهم ، ويتسمون بأسماء يهودية ، ويتحدثون بطَانَات غربية وأحياناً بلغة غير لغة أهل البلاد مثل الفرنسية فى إنجلترا والألمانية فى بولندا ، ويعملون فى وظائف هامشية مثل التجارة والربا . وقد أخذت عزلتهم تتزايد حتى تبلورت تماماً داخل الجيتو خلال القرن الخامس عشر الميلادى . ويبدو أن استبعاد اليهود إلى هذا الحد هو الذى أدّى فى نهاية الأمر إلى ظهور المسائل اليهودية المختلفة فى غرب أوربا ووسطها وشرقها . و لم تكن مؤسسات يهود أوربا الإدارية والتنظيمية فى العصور الوسطى تمتلك بيروقراطية محترفة معترفاً بها من قبَل الدولة المركزية ، و لم يكن هناك نظير لراس الجالوت (المنفى) أو رئيس اليهود

(نجيد) ، فكان لكل قهال (مؤسسة يهودية إدارية) قوانينه الخاصة بـــه (تاقانوت) التى يحدد فيها حقوقه وامتيازاته ويدافع عنها ضد يهود المـدن المجاورة . وكانت المحكمة التابعة لكل قهال مستقلة تباشر تنفوذها مـــن خلال التهديد بالطرد من الجماعة (حيريم) . وانقسام القهالات على هذا النحو كان تعبيرًا عن اللامركزية التى كانت تسم النظام الإقطـــاعى فى أوربا (ويختلف وضع الجماعات اليهودية فى العصور الوســـطى فى الغـــرب فى كثير من الوجوه عنه فى العالم الإسلامى فى الفترة نفسها . ففى العالم الإسلامى، اندمج اليـــهودى فى مجتمعـــه علـــى المســـتوى الوظيفـــى والاقتصادى والحضارى . كما أنه ، باعتباره عضوا فى جماعة دينية ، لم يكن فريدا بل كان ضمن أقليات دينية أخرى).